الباب الأول
تاريخ الحضارة الإنسانية

تقديم : معنى الحضارة

الفصل الأول : الحضارة فى عالم ما قبل الإسلام :

أولاً : الحضارة الفرعونية (المصرية)

ثانيًا : الحضارة العربية

ثالثًا : الحضارة الفارسية

رابعًا : الحضارة الرومانية

خامسًا : الحضارة القرطاجية (التونسية)

سادسًا : الحضارة الفينيقية (اللبنانية)

الفصل الثانى : الحضارة الإسلامية والحضارات القديمة :

أولاً : الثقافة عند عرب الجاهلية – دراسة مقارنة

ثانيًا : أضواء على العقيدة اليهودية .

١– النظم القانونية والاجتماعية لدى الاسرائيليين

٢– التربية والتعليم عند الإسرائيليين.

٣– الأنشطة عند الإسرائيليين .

٤– آثار الأفكار الحزبية والقوى السياسية الأخرى على الفرد الإسرائيلى.

ثالثًا : نشأة الدولة الإسلامية.

رابعًا : نشأة الحضارة الإسلامية .

خامسًا : فضل العرب فى الفتوحات الإسلامية.

سادسًا : الآثار ولغة الحوار.

الفصل الثالث : آسيا والتاج الملكى :

أولاً : الإسلام فى آسيا.

ثانيًا : أفغانستان.

ثالثًا : الشرق الأقصى.

رابعًا : جنوب شرق آسيا.

خامسًا : رِدّةُ الفعل الصليبية.

تاريخ الحضارة الإنسانية

تقديم : معنى الحضارة

الحضارة فى اللغة هى الإقامة فى الحَضَر[1]، وهى ضد البداوة، و: مظاهر الرقى العلمى والفنى والاجتماعى فى الحضَرَ، (والحَضَرْ، والحاضرةُ والحَضْرُ - واحد)، وهى خلاف البادية وهى المدن والقرى والريف والعاصمة .

وقد عَرَّفَها ابن خلدون فى مقدمته بأنّها (أحوال عادية زائدة على الضرورة من أحوال العمران زيادةً تتفاوت بتفاوت الرَّفَه[2]، وتفاوت الأمم فى القِلّة والكثرة تفاوتًا غير منحصر[3].

وسُمِّيت بذلك لأن أهلها حضروْا الأمصار، بعد أن هجروا البادية وتمردوا عليها، لانعدام حصول الغنى والرَّفَه، اللذان بهما تتحرر فى النفوس دوافع التطلع، وتتحرك فى العقول عوامل الإنشاء والإبداع، وتبدأ السير فى طريق الحضارة خطوات تتلوها خطوات، فتكون الاكتشافات والإبداعات والانطلاقات الكبرى بما فى ذلك غزو الفضاء ومحاولات كشف أسراره وألغازه .

وتنطق الشواهد، وتؤكد التجارب أن الحضارة لا يختص بها شعب دون آخر، أو جنس دون جنس، أو لون دون لون . فقد تظهر فى قارة بعينها . وقد تكون فى كل القارات، كما يمكن أن تتنوع وتتعدد فى القارة الواحدة . كما هو الحال فى الشمال الإفريقى الذى تأتى فى مقدمته الحضارة المصرية القديمة الجارة لحضارات أخرى طاعنة فى الساحل الشمالى الإفريقى .

وهناك فى آسيا كانت قديمًا الحضارة الهندية، والصينية، والفارسية، وفى أوروبا اللاتينية - والرومانية .

وكانت الحضارة العربية فى أرض العرب .

وانتهى المطاف بالحضارة الإسلامية التى تَمكّن بفضلها العرب بعد أن تهيأت

---

(١) المعجم الوجيز باب حَضَرَ ص ١٥٧ .

(٢) لين العيش .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٣٠٩ .

لهم ظروف التحضر وإمكانيات التطور، أن يضيئوا مصابيح الحضارة فى عصر القرون الوُسطى، والتى انعكست أضواؤها على أوروبا؛ فأضاءت ظلام شعوبها المتخبطة فى غيابة الجهل والتخلف، وهم قيد أغلال الأسْر الفوضوى والإستبدادى، وضيق الأفق، حتى شَرَع مفكرو الغرب يتلمسون فى الحضارة الإسلامية آفاق التحرر، وسبل الانطلاق، وذلك لأن المدنيّة العربية والحضارة الإسلامية من أدهش ما عرف التاريخ.

ولئن كان التأثير العربى جليّا فى الغرب، فإن آثاره فى الشرق أعظم، لأنّ العرب هم الذين علمّوا العالم شرقا وغربا كيفية استقامة حرية الفكر والتطوير والإبداع – مع استقامة أحوال الدين وأمور العقيدة .

بينما يتطلب وجود حضارة من الحضارات مجموعة من العناصر الأساسية والعوامل الجوهرية لوجود تلك الحضارة، وقيامها، ونهضتها، وتطورها. وذلك لأنها ليست أمراً ينقاد الناس إليه بالفطرة. بل يتعين على الأجيال المتلاحقة اكتسابها بالمران والتعلم أو التلقين والتطويع.

حيث أن نقل موروث التراث الإنسانى من جيل إلى جيل هو عمل مرهون بجودة (المرُسِل) الناقِل، والمرُسَل إليه (المتلقى) كما أنها نتاج طبيعى لتطور الاحتياجات البشرية وتنميتها والتى لن تصل يوما إلى درجة الكفاية أو التشبع.

ومن أهم تلك العناصر :

أولاً : نظم الحكم السياسية :

ففى ظل أى نظام يرتضيه المجتمع، بحيث يأمن الناسُ ويطمئنُّون على أنفسهم، وأموالهم، وأقواتهم. يحصل الإنصراف إلى التفكير الهادئ السليم المنتج، والمبدع.

ثانيا : التقاليد الاجتماعية، والقيم الأخلاقية :

وهى التى تفعل فعل الدستور باعتباره قانون القوانين التى تحكم المجتمع وتصون حقوقه فى إطار من الأعراف والقوانين الاجتماعية إذا كان ذلك عندَ شعوب غابت عنها (التشريعات السماوية)[1]، بحيث يرعى الجميع تلك التقاليد وهذه القيم ويتمسكون بها لتقوية الروابط والصلات بين أفراد المجتمع على اختلاف شرائحه، حتى ينتظم سلوك الناس، وكي يتخذ – المجتمع – طريقه الصحيح نحو الهدف الذى يسعى الجميع إلى تحقيقه .

---

(١) أى أهملتها الشعوب وأعرضت عنها .

ثالثًا : وحدة اللغة :

وهى لغة التخاطب، وأداة نقل الثقافات، والأخلاق، والتقاليد، والقيم من جيل إلى جيل. كونها كذلك وسيلة تبادل الأفكار، والأبحاث، ومتابعة العلوم، والفنون، والآداب، والمواثيق الإنسانية لأمة بأسرها، كما هو الحال فى الأمة العربية، وفى الحضارة الصينية.

رابعًا : الموارد الاقتصادية :

ويقصد بها تنوع الموارد وتجددها من مواد خام ووسائل إنتاج ورؤوس أموال وأدوات تسويق بحيث تعمل كلها باتساق تام لخلق وإيجاد المدنيّة (الحضارة) وازدهار فنونها وذيوع صيتها.

وهناك من العوامل التى قد تعوق سير الحضارة ونهضتها، أو قد تستثيرها وتحثُّ خُطاها على السعى والتقدم. من أهمها :

● **العوامل الطبيعية (الچيولوچية) :**

حيث يلعب ذلك العامل دوراً خطيراً في نهضة الحضارة أو كبوتها، قيامها أو اندثارها، فقد يحدث أن يغمر الجليد الأرض بركام من الثلوج فَيحُصر الحياة فى نطاق ضَيّق، ويطمس ما أنشأه الإنسان. أو قد يحدث زلزال عظيم تنشق الأرض له فتبتلع ما فوقها، ومن فوقها من المبدعين وإبداعاتهم ومن ثم يتضح ما للطبيعة من تأثيرات حاسمة على حركة التاريخ الإنسانى كله. مثال ذلك ما كان فى شأن (إرَم) ذات العماد.

● **العوامل الجغرافية :**

لا تقل فى تأثيرها عن سابقتها فى نشأة الحضارات، وازدهارها ففى المناطق الاستوائية حيث الخُمُول، والأوبئة، وأمراض المناطق الحارة يتعذر قيام حياة مدنية طبيعية سوية – هذا بخلاف بعض الحضارات التى ازدهرت فى القديم، واندثرت بسبب الجفاف الشديد، وندرة الأمطار.

ويعتبر وجود التربة الخصبة، والأنهار الصالحة للملاحة والنقل، ووفرة الشواطىء التى تصلح مرافىء للسفن، والواقعة على طرق التجارة العالمية، بالإضافة إلى وجود

الممرات المائية الطبيعية أو الصناعية، مثل مضيق جبل طارق، وقناة السويس، وكذلك وفرة الثروات المعدنية والمواد الخام الأولية في باطن الأرض، كلّ هذا وهذه عوامل ضرورية ولازمة لنمو الحضارة وتطورها، بينما يُعدُّ ندرة ما تقدم مُقوِّضا فعليا لفكرة نشأة حضارة من الحضارات أوْ حائلا أساسيا دون قيامها .

● **عوامل أمنية :**

حيث تبدأ الحضارة : حين ينتهي القلق، وينعدم التوتر، وتزول الاضطرابات فتنطلق في الإنسانية ملكات الإبداعات، وقدرات الإحداثات . وتتفجر في العقول الطاقات . ومن ثم تقوم أعظم الحضارات الإنسانية .

* * *

الفصل الأول

الحضارة فى عالم ما قبل الإسلام

تؤكد الحقائق على أن الإنسان مدنىٌّ بطبعه، يميل دائمًا إلى الحداثة والتجديد والإبداع والتبديل، لأنه دائمًا ما يتمرد على واقعه، أملا فى الوصول إلى غد أفضل يتوافر له فيه الرفَهُ، والترف، ولين العيش، ومن ثَمَّ فإنه يبحث عن الإندماج فى مجموعات بشرية تتطور هى الأخرى بتلقائية من البعض إلى الكل، ومن القلّة إلى الكثرة، وتلك نواة المجتمع المدنى المتكامل الذى احترف بعضه الزراعة، وبعضٌ التجارة. وآخرون قد احترفوا الصيد.

ثم تطورت طموحاتهم وحاجاتهم جميعا فاختطُّوا، المدن والأمصار، وأجادوا فى الأبحاث الدوائية لعلاج المرضى، وصاروا يتأنقون فى اختيار أشهر الأطعمة وأفخر الملابس، محققين بتعاونهم الاجتماعى أعلى استفادة ممكنة، مما أتاحته الإمكانيات، ووفرته البيئة، ثم اجتهدوا فى جلب أدوات ووسائل أخرى، من الأمصار الأخرى التى وصلوا إليها عن طريق الهجرة البدائيّة، والتى تطورت بعد لتصل إلى حد الكشوف الجغرافية، وتطورت بالضرورة فيما بعد لتصل إلى حد قهر شعوب أخرى للإستيلاء على مواردهم، وثرواتهم، وتسخيرهم بل وخلق نوع جديد من التجارة فى البشر فيما عُرف بَعْدُ (النخاسة). وتلك هى نتائج حركة الهجرة الجديدة الموسعة ومساوئها والتى ارتبطت دائمًا بالدول الاستعمارية.

وقد شبّت فى مناطق مختلفة على سطح الأرض حضاراتٌ عظيمةٌ منذ ما قبل التاريخ، وعند فجره. وبعد أن عُرف التاريخ. ومن أمثلتها:

الحضارة المصرية القديمة (الفرعونية)، والتى نبغت فى علوم الفلك والطب والجغرافيا، وعلم «تحنيط الموتى»، والرياضيات، والهندسة، والعمارة.... والتى لم تدع فرعًا من فروع العلم والمعرفة إلى وطرقت أبوابه، وسجلت على صفحات التاريخ نُبوغ أصحابه (الفراعنة)... ثم كانت كذلك الحضارات (العربية، الفارسية، الرومانية، القرطاجية، الفينيقية) وكلها قد ساهمت بمقدار فى إعداد أبنائها علمًا وفنًا وأدبًا ونبوغًا وسلوكًا وتقاليد وأخلاقًا وسلوكًا.

* * *

أولاً: الحضارة المصرية (الفرعونية)

هى من أقدم الحضارات التى عرفتها البشرية، والتى نشأت فى الجزء الشمالى الشرقى من قارة إفريقيا .

وقد برع المصريون القدماء فى تحسين زراعة الأرض، حتى أصبحت الزراعة من الحرف الأساسية فى مصر، ثم فى وادى النيل بعد ذلك.

وإلى جانب هذا التطور فى الزراعة فقد ظهرت بعض الحرف الأخرى كأشغال الحجر، والصلصال، والخشب، كما ظهرت حرفة النسيج، ودباغة الجلود، وساعدتهم أبحاثهم وإمكانياتهم على اكتشاف المعادن التى فتحت الأبواب إيذانا ببداية عهد جديد، وازدادت تجارة المقايضة ازدياداً كبيرا بظهور الحرف[1]، كما برعوا فى صناعة السفن، وضربوا بسهم وافر فى الأدب، ودرسوا الفَلَك، وكانوا أسبق الناس فى وضع التقويم السنوى، وعرفوا النظام العشرى فى الرياضيات، وألمُّوا بشىء من علم الجبر، واهتموا بترقية فن العمارة، فدرسوا العمليات الحسابية المتصلة بالمربعات، والمثلثات، والدوائر، وحجوم الأهرامات البسيطة والناقصة.

وبرعوا كذلك فى الطب كما تشهد على ذلك وإلى الآن دراسات المومياء (علم تحنيط الموتى)، وعالجوا العظام، والأنسجة الجلدية المريضة بالآلات الجراحية وأبدعوا فى علاج الأسنان بالتوصل إلى الحشو، كما أبدعوا فى صناعة الأوانى الزجاجية، والخزفية، والأصباغ، وعَرَفُوا الورق من نَبات البردى، ومن مواد أخرى، ومازال الفن والإبداع الفرعونى واقفا على رؤوس الأشهاد يستهوى الوافدين من العالم للتعرف على عبقريات المصرى القديم.

بينما لم يشأ المصرى القديم أن يظل حبيساً بطاقاته فى حدوده الجغرافية، وأيضاً عليها، إنما قد خَطَى خُطوات تلو أخريات للتعرف على جيرانه ونشر مدنيته فيهم وكانت تلك هى أول الخطوات التى كشفت أجزاء مهمة من قارة إفريقيا، وبعثت أشعة النور بين جنباتها وفى ظلمات أدغالها.

واستمر التوسع المصرى فى إفريقيا، حتى وصلت الأسرة الخامسة إلى الصومال والمناطق الواقعة جنوبى خليج عدن. وكانت تلك هى البعثة التى أرسلها (سحور رع) وهى بعثة ذات طابع تجارى خالص فى المقام الأول.

وقد استطاع المصرى القديم التوغل عن طريق النيل صوب الجنوب فى عصر الملك [بيبى الأول] حوالى سنة ٢٥٠٠ ق.م. حين أرسل حملة إلى بلاد النوبة (وراء الشلال الأول) وجنّد من بين النوبيين فرقا بالجيش المصرى، واستعملهم فى غزواته الشمالية وظلت هذه عادته وعادةُ كثير من الحكام الذين جاءوا من بعده.

---

(١) موجز تاريخ إفريقيا ص ٤ ، ٥ تعريب أمين الشريف.

وفى أيام (بيبى الثانى) أرسلت حملة بحرية إلى الصومال، دلت عليها النقوش التاريخية الموجودة إلى الآن، وتكررت غزوات مصر فى عصر الدولة الوسطى.

وتعتبر رحلات المصريين فى عصر الملكة « حتشبسوت » فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد. رحلات استكشافية من الدرجة الأولى، وقد سلكت هذه الرحلات طريق البحر الأحمر والمحيط الهندى حتى وصلت إلى بلاد الصومال وإريتريا[١]، وهكذا يتبين كيف عمل المصرى القديم على نشر مدنيته فى بلاد الجوار حتى وصل إلى منابع النيل، واتجهوا غربا حتى بحيرة تشاد، ثم تخطوها إلى الغرب الإفريقى وتطورت صلات المصريين القدماء بهذه المناطق، وتنوعت إلى صلات تجارية، وثقافية، وتطورت أكثر لتُصبَغ أحيانًا بالطابع السياسى والعسكرى.

فهناك على ضفاف النيل حيث [السلام، والطعام ، والذكاء] عاشت هذه الحضارات ومن مصر انتقلت إلى أوروبا وإلى إفريقيا[٢].

هذا وقد عاودت السيادة المصرية بسط نفوذها على الإمبراطورية المصرية فى آسيا، فى عصر الفرعون المصرى (نيكاو)، فى موقعة (مجدو) عام ٦٠٩ ق.م. وقد تمكن الفرعون من أن يفرض السيادة المصرية على دويلة (يهوذا) – القسم الجنوبى من المملكة الإسرائيلية القديمة – خلال عهد « يهو آحاذ » ، « يهوياقيم »، واستمر الحال كذلك حتى جاء الملك [نبوخذ نصر] على عرش بابل فى ٦٠٥ : ٥٦٢ ق.م واستولى على أورشاليم[٣].

هذا وقد شُغف الفراعنة بإحتلال فلسطين وسوريا فاخترقت الجيوش المصرية قلب فلسطين حوالى [١٦٠ : ق.م] ، وظل الحال حتى ضعفت قوة مصر وغزاها الهكسوس[٤] ولم تلبث مصر أن استردت قوتها، حتى تمكنت الإمبراطورية الجديدة من طرد الهكسوس إلى قلاعهم بقيادة (أحمس).

وبعد أن حقق المصرى القديم الكثيرَ من النجاح المادى وقد تحققت أيضًا على يديه المعجزات الإبداعية الخلاّقة – طرأت على آماله الحداثة فاشتغل بالبحث عن إشباع رغباته الروحية استرضاء للغريزة الفطرية التى تميل إلى العبادة، وتحنّ إلى الكمال وتسأل عن الإله الأعظم.

وقد نشأت فى الحضارة المصرية القديمة نظرية دينية جديدة، قيل فيها أنها المثلث الإلهى الأزلى (سر وجود مصر) والذى بُنِىَ عليه المثلث اليونانى، وقد كانت التقاليد فى مدينة أبيس عبادة أوزيريس فى ثالوث أو مثلث مكون من :

---

(١) كشف إفريقيا ص ٧–٩ من تقديم د. زاهر رياض.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ج٦ ص ١٣٣ .

(٣) تاريخ الشعب اليهودى / م.ل – مارجولوليز، أ.ماركس اليهوديان ج٢ ص ٥٦ .

(٤) تاريخ الشرق القديم – مصر وسوريا القديمة ص ٣٣٤ .

١- أوزيريس: وهو يشكل عجل أبيس.
٢- أريس: البقرة المقدسة مغذية ابنها حورس.
٣- الطفل حورس: أو أبيس الصغير أى (العُجَيل)[١].

وقد اتضح التأثير المصرى فى المناطق التى خضعت للنفوذ المصرى المباشر أو تلك التى ارتبطت بروابط ثقافيّة وتجارية من دون التبعية العسكرية فى الداخل الإفريقى. فالقبائل التى كانت لها السيادة فى رواندا، بوروندى كانت تقدس البقرة كما قدس أسلافهم فى مصر عجل أبيس، واتخذوا منها معبوداً كما فعل المصريون بالآلهة (هاتور)، بينما يحظى الكبْش بتقديس عظيم عند اليوروبا، كما هو مقدس عند المصريين.

وديانة اليوروبا تجمعها عناصر شَبَه. تسترعى الإنتباه وتلفت الأنظار إلى ديانة مصر القديمة، كما أن هناك شبه مثير بين مقبرة [أتاجلاّ] (ATAGALLA) ذى الشكل الكهفى أو القوارب التى كانت تستعمل كتوابيت عند قبائل النوبى، وبين الرسومات الموجودة على المقابر المصرية[٢].

ولقد نزل الروح الأمين (جبريل عليه السلام) فى أرض مصر قبل أن ينزل على رسول الله ﷺ فى مكة بنحو (ألفين ومائتين وعشرين عاما تقريبا) حيث جاء جبريل عليه السلام بوحى من الله تعالى إلى [يوسف عليه السلام] فى سجنه المجاور لمنزلى بقرية (أبوصير - البدرشين - جيزة) ليعلمه تأويل الأحلام، ويلقنه حجته وليعطيه مقدما إجابة ما قد يُسْئل عنه.

وها هو ذا نبى الله يوسف عليه السلام يُقر إقراراً أكيداً بفضل الله عليه ورحمته به، حين أجاب اللذين دخلا معه السجن، وقد قال: ﴿ **لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي** ﴾ [يوسف: من ٣٧].

وقد استطاع يوسفُ عليه السلام أن يفسر الحلم الذى رآه فرعون مصر، وبعدها صار عزيزاً لمصر - بينما هبط الأمين جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ بغار حراء فى مكة المكرمة وكان للرسول ﷺ من العمر أربعون عامًا، وحكى ابن جرير عن ابن عباس وسعيد بن المسيّب أنه كان عمره إذ ذاك ثلاثا وأربعين سنة[٣].

---

(١) تاريخ اليهود القديم بمصر - الطبعة الأولى ص ٢٦ : ٢٧ - عبدالمحسن الخشاب.
(٢) التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ج ٦ ص ٨٠ : ٨١.
(٣) البداية والنهاية ج ٢ ص ٥.

وفى هذا ما يؤكد على عمق الحضارة المصرية وعظمتها الطاعنة فى بطن التاريخ والتى يدين العالم كله بالفضل العظيم لها، ولإبداعاتها، وآثارها، وإسهاماتها فى الحضارة العالمية.

ويجدر القول بأن المصريين القدماء قد عرفوا كتابة التاريخ وحساب الأيام، ووضعوا التقويم المصرى القديم عام ٤٢٤١ ق.م.

وقد استهل فرعون مصر تحتمس الثالث عصر التوسعات، وأسس امبراطورية فى فلسطين وسوريا إمتدت إلى نهر الفرات منذ [١٥٤٠ : ١٤٧٩] ق.م، وقد فقدت مصر إمبراطوريتها الأسيوية بعد الإضطرابات الدينية التى حدثت بعد أن فرض فرعون مصر (إخناتون) عبادة الشمس فى ١٣٦٠ ق.م.

وفى حوالى (١١٠٠ : ٩٥٠ ق.م) كان عصر الملوك الكهنة (الأسرة ٢١). وفيه استولى كهنة آمون على العرش، وحكموا باسم الدين، ثم انقسمت مصر إلى الجنوب (طيبة) ويحكمها كهنة « توت عنخ آمون »، والشمال (تانيس) صان الحجر حاليا، حوالى ١٠٧٠ : ١٠٠٠ ق.م.

وكانت مصر مطمعًا للغزاة منذ عهدها الأول، فقد تعرضت عام ١٢٠٠ : ١١٠٠ ق.م إلى غزو خارجى من قِبَل من كانوا يُعرفون حينئذ (شعوب البحر)، وهى شعوب أوروبية قادمة من بحر إيجة، وقد غزت سوريا، وفلسطين، وحاولت دخول مصر. لكن رمسيس الثانى تصدى لهم وطردهم وأحبط محاولاتهم، ثم جاء الأشوريون فى ٦٧٠ ق.م فدمروا ممفيس وطيبة، ولكنهم فشلوا فى السيطرة على مصر، وفى ٥٢٥ ق.م قاد الملك الفارسى (قمبيز) حملة عسكرية إستطاع خلالها احتلال مصر حتى عام ٤٠١ ق.م وهى ما تعرف تاريخيا (الاحتلال الفارسى الأول). ثم عاوَدَ الفرس احتلالهم مصر ثانية فى ٣٤٣ ق.م بقيادة ملكهم « أرتكسركيز » أو هو (هوار تحشاشا) حتى جاء الإسكندر الأكبر (المقدونى) فى ٣٣٢ ق.م وفتح مصر بعد أن استنجد به المصريون وقد إستطاع تحريرها وطرد الفرس، ثم أسس مدينة الإسكندرية فى العام ذاته، وظلت مصر تحت الحكم المقدونى حتى ٣٠٤ ق.م ليبدأ عصر البطالمة حتى جاء (أوكتافيوس) الديكتاتور الرومانى الذى تمكن من إخضاع مصر للإمبراطورية على مدى عدة قرون، ثم أصبحت بعد ذلك جزءاً من الإمبراطورية البيزنطية سنة ٣٠ ق.م إلى عام ٣٠٣ ميلادى، وفيه بدأ الإمبراطور الرومانى (ديوكليتيان) . دقلديانوس. اضطهاده للمسيحيين المصريين بشدة وبقسوة وغلظة وكان إرادة الله القوية، ومشيئته الغالبة، وقوته القاهرة، أرادت بمصر والمصريين

الخير كله، فكان أن حدث إلى جانب الإضطهاد الرومانى زلزال شديد فى شرق الدلتا فى ٢١ / ٧ / ٣٦٥ م دمر مدينة تانيس (صان الحجر) تماما (بمحافظة الشرقية)، وحطم معابدها الضخمة، وأتىَ على سَلاَّتِها الكبيرة، ومحاها تمامًا، وأنهى بذلك وضع المدينة « الخاص » كمركز دينى كبير فى العهدين الوثنى والمسيحى.

مما هيأ الأمور تمامًا فى مصر لاستقبال الفتح الإسلامى، وزيوع صيته وسرعة انتشاره، وقضى تمامًا على معوقات هذا الفتح.

* * *

ثانيًا : الحضارة العربية

تقع بلاد العرب فى منطقة إلى الجنوب الغربى من قارة آسيا، وقد أطلق عليها العرب قديمًا الجزيرة العربية، وهى عبارة عن مستطيل غير متوازى الأضلاع وهى فى واقعها شبه جزيرة، وتبلغ مساحتها ثمانية أضعاف الجزر البريطانية مجتمعة، وضعفى مساحة فرنسا، إلا أنها عدا – اليمن – غلب عليها الجدب لندرة الأمطار التى جعلت الناس تنتقل حيث يتساقط القطر، وينبت الكلأ الذى ترعاه دوابهم، وهى بالتالى تفتقر إلى الأنهار دائمة الجريان. غير أنها بها بعض عيون المياه (الآبار) التى لا تفى بحاجة الناس والأرض والحيوان.

ويقص القرآن الكريم أن أقدم طبقات شعوب العرب قد بادت، واندثرت أخبارها بحيث يصير من العسير على الدارسين، والباحثين الخوض فى بحث عن العرب الأول، لأن أكثر المتداول من معلومات والمتاح من أخبار عن هذه الطبقات مستمد من الكتب السماوية، وأكثر ما جاء فيه – غايته – الترهيب والترغيب، واستخلاص العظة والعبرة كقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ [القمر: ١٥] ، وهناك ما رواه المؤرخون (هيرودويت ، وديودور) وما قالا به لا يميل قلبى إلى تصديقه ويرفض عقلى قبوله لأنها أقوال تعتمد على المظنات ولا جدوى من التوقف عليها.

والذى بين أيدينا أن أولاد "آدم" عليه السلام، وهم الأصول مثل (هابيل، قابيل، وشيث، عبدالحارث) وفى بعض الروايات « إدريس عليه السلام » . وقد وُلِد لإدريس (عنْدر ، ولعندر محوايل، ولمحوايل متوشيل، ولمتوشيل لامك) وقد تزوج لامك من امراتين (عَـدَا ، صَـلاَ) فولدت الأولى (إبل، نوبل) ، وولدت الثانية (توبلقين) وبنتا اسمها (نعمى) .

وقد رُزِق شيث فى حياة أبيه آدم بإبنه (أنوش) وبنون وبنات غير أنوش، فوُلد

لأنوش (قينان) وولد لقينان مهلا ييل وولد لمهلاييل (يَرْد) وبنون وبنات غير يرد، فلما كان ليرد مائة سنة واثنتان وستون وُلد له « خنخوخ » وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وولد له بنون وبنات، فلما كان لخنخوخ خمسة وستون سنة وُلد له متوشلح وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة ووُلد له بنون وبنات، فلما كان لمتوشلح مائة وسبع وثمانون سنة وُلد له لامك، وعاش بعد ذلك سبعمائة واثنين وثمانين سنة وَوُلد له بنون وبنات فلما كان للامك من العمر مائة واثنان وثمانون سنة وَلد له نوح، وعاش بعد ذلك خمسمائة وتسعين سنة ووُلد له بنون وبنات، فلما كان لنوح خمسمائة سنة وُلد له بنون (سام، حام، يافث، كنعان)[1]. وهذا مضمون ما فى أيدى أهل الكتاب صراحة.

وقد انحرف مَن جاء من هؤلاء عن طريق الله، ومكروا وعصوا، واعتدوا وكفروا وفسدوا في الأرض بكل أشكال الفساد وطرقها، وقد ضلوا، وعاثوا فى الأرض فساداً يميناً ويساراً، واتخذوا من دون الله آلهة أصناماً يعبدونها ويدعونها فأرسل الله تبارك وتعالى (نوحاً) عليه السلام إلى قومه، وهم وإخوانه وأخواته وأولادهم وأعمامه وعماته وأخواله وخالاته وأولادهم، وقرناؤه ونظراؤه من بنى قومه، ليبين لهم طريق الهداية والصراط المستقيم من قبل أن يأتيهم الموت وهم على ذلك. فيأتيهم عذاب أليم. وليبين لهم نوحٌ عليه السلام سبيل العبادة والتقوى والطاعة، وليبشرهم بوعد الله وجزائه. إذا ما أنابوا إلى ربهم وأسلموا له من قبل أن يأتيهم الموت وهم على عُتُلهّم وبغيهم وكفرهم.

فعدد عليهم نوح عليه السلام وعد الصدق بمغفرة ذنوبهم، وإسعادهم وتمتعهم عند أجل قضى الله فيه أن يأتى بلا تأخير.

ولكنهم بلغوا النهاية فى العتوّ والتكبُّر والنَّفْرَة [أى] فِراراً – والنَّفْرُ والفِرار واحد: فرّ – فرّاً ، فِرَاراً : هرب : فهو فَارٌّ ، وفرّار .

ويقال : فَرَّ إليه : لجأ ، فِرَارًا : و– الفرار – : الملجأ يُفرُّ إليه[2].

ويقال: نَفَرَ – نُفُوراً : هَجَرَ وطنه وضرب فى الأرض، ومِنَ الشيء نفوراً، نِفَاراً: فزع وانقبض غير راض عنه [3].

---

(١) البداية والنهاية ج١ ص ١١٠ ، ١١١ .

(٢) المعجم الوجيز : ص ٤٦٦ .

(٣) المعجم الوجيز : ص ١٢٦ .

وقد عاملوا نوحًا عليه السلام باستياءٍ وبأشياءَ كُلّما قصد دعوتهم إلى الله تعالى - من أهمها :

أنّهم جعلوْا أصابعهم فى آذاناهم لئلا يعلموا الحجة أو تأتيهم البينّة، واستَغْشَوا ثيابهم: أى تغطوا بها لأجل أن لا يُبصِروْا وجهه.

وجعل الأصابع فى الأذان والتغطية بالثياب يؤكدان على الإعراض المطلق مما يصيِّر المانع من السماع أقوى، وأصروا على عنادهم وإعراضهم عن دعوة الحق، واستكبروْا استكباراً عظيما بالغا أقاصى المدى.

وقد بين نوح عليه السلام منهجه، وأقر باتّباعه طرقا ثلاث عند دعوة قومه، وقد بدأها بالمناصحة (أن اعبدوا الله واتقوه) فلما لم تُثمر ثنّى بالمجاهرة (إنى دعوت قومى ليلا ونهارا) فلما لم تثمر جمع بين الإعلان والسِّر (أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا).

وقد قال لهم نوح عليه السلام : (استغفروا ربكم إنه كان غفارًا) :

وفيها قال مقاتل: إن قوم نوح لما كذبوا طويلا حبس الله عنهم المطر، وأعقم أرحام النساء أربعين سنة، فرجعوا إلى نوح. فقال نوح: استغفروا ربكم من كل شرك حتّى يفتح عليكم أبواب نِعَمه، فينزل المطر من السماء (السحاب) ويرزقكم بالأموال التى تعمّ كلّ النعم، والبنين: وهو ما تميل النّفْس والفطرة إلى حصوله ويجعل لكم البساتين والأنهار(١).

وقد ذكّرهم نوح عليه السلام بأن تعظيم الله وتوقيره مدعاة لحصول تلك المنافع كلها وزيادة، والإشتغال بهما أولى مما هم عليه، ثم عاد ليذكرهم بقدرة الله عليهم مستخدمًا التنبيه على أطوار خلقهم، ثم أقام لهم الشواهد المادية من البيئة المحيطة وهى من دلائل الآفاق التى تُحدث الإبهار، وتوجب التعظيم، ثم ذكر دلائل النفس التى بالبحث فيها يحصل اليقين بقدرة الله الدالة على الخلق والإيجاد والصيرورة والتغيُّر والفناء والعدم.

ثم نبههم نوح عليه السلام ودعاهم إلى النظر فى هذه الدلائل الظاهرة، وحكى كذلك أنواع قُبح قولهم، وفعلهم، لذلك قال نوح مُتمِمًا لما بدأ ﴿ **أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ** ﴾ [نوح : ٣].

وكأنه ههنا يقول يارب إنى طلبت منهم طاعتى فى محبتك والسير على طريقك، فعصَونى واشتروا الدنيا ومنافعها الخاسرة. من المال، والولد، وإن كانا من جملة المنافع فى الدنيا، إلا أنهما فى الآخرة كالعدم ﴿ **يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ**

---

(١) مفاتيح الغيب ج ١٥ ص ٧٣٨ .

وَلَا بَنُونَ ﴾ [الشعراء: ٨٨] ومع ذلك مكروا مكراً كُبّارا (وهو المبالغة فى كبر المكر)، وقالوا لأتباعهم أو أمروهم – لا تتركوا عبادة الآلهة (ودّ[١]، سوَاع[٢]، يغوث[٣] – يعوق – نسرا[٤]) وكلها أصنام آلهة عبدها قوم نوح عليه السلام.

وقد أضلت تلك الآلهة الكثيرين من الناس كما أنها لا تزد هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالضلال البيّن والحيف الظاهر إلاّ ضلالا وغيًا.

وما كان إغراقهم بالطوفان «وهم» الفئة الأولى من البشر إلا من أجل خطيئاتهم وإصرارهم، وعنادهم وتوليهم عن الحق وعبادتهم الطاغوت عدا نوح وأهله (عدا زوجه) وولد يقال له كنعان. الذى غرق فى الطوفان وهو الأب الشرعى للفلسطينيين الذين سكنوا فلسطين قبل أن يرحل إليها الساميون بنحو (٢٠٠٠) ألفى عام...

وما شاء الله أن يبقى من الأجناس والأنوع. أمر الله تعالى نوحًا بحَمله معه فى الفلك المشحون.

ولكن نوحًا قد دعا دعاءه لله مناديا إياه كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ [الصافات: ٧٥] وسمع نوح من فوره نداءً من قبل السماء ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود: ٣٧].

ولما هَمَّ عليه السلام بصناعة السفينة تنفيذاً لأمر ربه جل وعلا. تغامزوا عليه وسخروا منه ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ [هود: ٣٨] وكان ما حكت الآيات.

تذرّع نوح عليه السلام بالصبر والإيمان حتى جاء أمر الله، وقضى فيهم قضاءه العادل ومضى حكمه النافذ كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠].

أى أن قضاء الله وأمره وحكمه بإغراق هؤلاء القوم كان يتضمن القضاء على كل نسل آدم عليه السلام بسبب خطيئاتهم ﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا ﴾ [نوح: ٢٥]

---

(١) عبده العرب فى الجاهلية الأولى قبل الطوفان، و– /وُدًّ/ للعرب قبل الإسلام.

(٢) صنم عُبد فى قوم نوح ثم صار لهذيل أو كان لهمدان وحُجَّ إليه.

(٣) صنم كان لقبيلة مَذْحج فى الجاهلية.

(٤) النّسر: مع تشديد النون بضمها أو كسرها أو فتحها هو طائر من الجوارح حاد البصر من رتبة الصقريات.

وكان نوح قد طلب من ربه مثل ذلك حين قال: ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ [نوح: ٢٦].

جمع نوح ما أُمر به أن يجمع، ومن كتب الله لهم النجاة معه، فجمع من الطير والحيوانات والزواحف، من كُلٍّ [ذكراً وأنثى] كما قال تعالى: (زوجين اثنين) وأهله غير امرأته وولد له قيل أنه (يام)، وقيل كنعان. ولا مشاكلة فى ذلك. وقد قال الولد (سآوى إلى جبل يعصمني من الماء) ولم ينفعه المأوى، وقَتَلَهُ الذى ظن أنه سيعصمه من دون الله (الماء)، ﴿وحال بينهما الْموج فَكَانَ من الْمُغْرقين﴾ [هود: ٤٣].

وقد اختلف العلماء فى عدد من كانوا فى السفينة. فعن ابن عباس كانوا ثمانين نفساً معهم نساؤهم، وعن كعب الأحبار كانوا اثنين وسبعين نفساً، وقيل كانوا عشرة وورد فيهم كلام كثير [١] - وعدم الاشتغال به أولى فهو علم لا ينفع أو جهل لا يضر.

وقد أهلك الله تعالى معاشر الأقوام الذين أُرسل فيهم نبى الله نوح. فيما قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ [النجم: ٥٢] وقوله تعالى: ﴿وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين﴾ [الذاريات: ٤٦].

وتجدر الإشارة هنا إلى يأجوج ومأجوج المفسدين فى الأرض وهم على الأرجح من ولد يافث بن نوح. وهؤلاء لم يغرقهم الطوفان، لأن ذى القرنين حبسهم وأقام عليهم الردم والسّد كما حكى القرآن الكريم قصتهم فى سورة الكهف، وذلك قبل حادثة الطوفان بسنوات بحسب مبلغ ظنى. إذ لو كان غير ذلك لكان أوجب بالذكر فى القرآن الكريم والله تعالى أعلى وأعلم.

وثمة دليل مادى على صحة ما ذهبنا إليه، وهو المحبس الذى به يأجوج ومأجوج يقع إلى الشمال كثيرا من المنطقة التى غشيها الطوفان والتى تنتهى من جهة الشمال بمنطقة «جبل الجودى» بالجنوب التركى - أما السدُّ الذى جعله ذو القرنين على هؤلاء المفسدين فإنّه إلى ناحية الشمال، وقيل جبلان بين أرمينية (أرمينيا الآن) وبين أذربيجان وهو الأرجح، وقيل هذا المكان فى مقطع أرض الترك، وحكى محمد ابن جرير الطبرى فى تاريخه أن صاحب أذربيجان أيام فتحها وجّه إنسانا إليه من ناحية الخزر فشاهده، ووصف بنيانه أنه بنيان رفيع وراء خندق عميق وثيق منيع [٢].

---

(١) البداية والنهاية ج١ ص ١٢٨، ١٢٩.

(٢) انظر: هذا بلاغ للناس: للمؤلف.

وهكذا هلكت البشرية من على وجه المعمورة إلا ذرية نوح. ومنه يُستدّل على أن بنى البشر الموجودين حاليا وبعد عصر الطوفان. كلهم من نسل نوح عليه السلام، وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿ **وجعلنا ذريته هم الباقين** ﴾ [الصافات : ٧٧].

وروى من حديث إسماعيل بن عياش عن يحيى بن سعيد بن المسيب أنه قال : ولد نوح ثلاثة (**سام ويافث وحام**) وولد كل من هذه الثلاثة ثلاثة، فولد سام (**العرب وفارس والروم**)، وولد يافث (**الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج**)، وولد حام (**القبط والسودان والبربر**)[1].

وأما العرب المستعربة فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل، وكان اسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة، وكان قد أخذ كلام العرب من « جرهم » الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم، ولكن أنطقه الله بها فى غاية الفصاحة والبيان، وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله ﷺ.

والثابت أن أقدم طبقات العرب قد بادت، واندثرت أخبارها، ومن أشهر الطبقات البائدة عادٌ قوم هود، ومساكنها كانت بالأحقاف شمال شرق بلاد اليمن، وثمود قوم صالح، وكانت منازلهم بالحِجْر شمال الجزيرة العربية، وكان منهم العمالقة، وأحد فروعهم ملوك مصر المعروفُون بالهكسوس أو « الرعاة ».

ومما وقفنا عليه من أخبارهم مما تيّسرت لنا أنهم قد تمدنوا تمدنًا لا يزال الكثير من آثاره مطموراً تحت الرمال، ولم يبق من أخبارهم إلا ما رُوى عن فخامة أبنيتهم فخامة نعدُّ ما قاله المؤرخون فيها من قبيل الخرافات لخروجها عن المألوف فى كل العصور وفى كل الحضارات. وذلك مثل حديثهم عن مدينة « إرم » التى ذكر رجال الأخبار عنها أن « شداد بن عاد » قد بناها فى الأحقاف فى بقعة مساحتها عشرة فراسخ فى مثلها، وغشى جدرانها بصفائح الفضة المموّهة بالذهب، وأنه أقام بها مائة ألف قصر على عمد من الزبرجد والياقيت، وأجرى جداول الماء فى وسطها، وجعل حصاها من الذهب والجواهر، ومع المبالغة الواضحة فى هذا الوصف فإنه يشفُّ عن حقيقة مهما قيل فى تحقيرها فإنها لا تقل عن أن تكون بعض الأبنية فيها أُقيمت جدرانها أو أساطينها بالحجارة الكريمة، وهذا غاية ما يمكن أن يصل إليه البذخ والترف، ويُهوِّن علينا قبول ذلك ما جاء فى القرآن الكريم عن هذه عند قوله تعالى: ﴿ **إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ** ﴾ [الفجر: ٧-٨].

* * *

(١) البداية والنهاية ج١ ص ١٣٢ : ١٣٣.

أما العرب الباقون فشعبان

(أ) عرب الجنوب : القحانيُّون

وموطنهم الأول بلاد اليمن السعيدة – لتوفير المياه الصيفية فيها، وقد تيَسَّرَ لأهلها الحفاظ علي ثرواتهم المائية بما أنشاوه من سدود صناعية مكّنتهم من القيام بأعمال الزراعة الدورية المنتظمة التى تنوعت بها المحاصيل الزراعية .

وبلادهم كانت تتوسط أُمم العالم القديم، وتُشرف فى الوقت ذاته على البحر الأحمر والمحيط الهندى مما مكنهم من اكتساب خبرة بحرية استغلوها فى نقل محاصيل الحبشة وشرقى إفريقيا ومحاصيل الهند إلى العراق، وإلى بلدان البحر المتوسط .

وغدت بلاد اليمن القديم مركزًا هامًا من مراكز التجارة العالمية . استطاع اليمنيون بفضلها تحقيق الأرباح الطائلة التى مكنتهم من تطوير الزراعة .

والمعلوم أن اليمن تتأثر مباشرة بالرياح الموسمية التى تتغير اتجاهاتها بتغير الفصول الأربعة، وقد انفرد اليمنيون بمعرفة هذا التغير، واستطاعوا توظيفه لصالحهم، وتحقيق أقصى استفادة ممكنة من هذه المعرفة حتى احتكروا تماما الملاحة فى المحيط الهندى .

وقد استطاع اليمنيون أن يضعوا القوانين السياسية والاقتصادية بما ينظم طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وشيّدوا أروع المدن، وقامت على أرض اليمن دولة عربية قديمة من أشهرها دولة « معين » التى تشابهت حضارتها وحضارة البابليين، وأرجع بعض الباحثين أن أهل معين هم أول من استعمل الحروف الهجائية وقد اقتبسها الفينيقيون عنهم ومنهم أخذها اليونانيون .

أما المصريون فيعاد لهم بالسبق إلى الكتابة إلا أن كتابتهم كانت تصويرية لا هجائية(١) .

وتأتى مملكة سبأ كأشهر دول عرب الجنوب، وقد شيد أحد مُلوكها سد مأرب الذى كان يُعتبر من أعاجيب العالم القديم، فقد بلغ طوله ثمانمائة ذراع وعرضه مائة وخمسون، وقد احتاج بناؤه إلى كثير من المهارات الهندسية والدقة فى التنفيذ، حيث كان بناء ضخمًا صبر على صدِّ المياه قرونا عدة(٢) .

---

(١) تعتمد على صور ورموز ولا تستعمل الحروف الأبجدية .

(٢) المداخل الجنوبية لجزيرة العرب – غريا ستارك ص ١٠ .

وقد وقع فى الجزء الأول. على الصفحة الثانية عشرة من كتاب (تاريخ التمدُّن الإسلامى) أن الرحالة اليونانى (استرابون) ذكر عن مدينة مأرب التى بُنى السد قريبا منها أنها كانت فى زمنه وهو القرن الأول من الميلاد كانت مدينة عجيبة، وسقوف ابنيتها مصفحة بالذهب، ومحلاة بالأحجار الكريمة وبالعاج، وبها الأوانى الثمينة المزخرفة التى تبهر العقول، وقد ضرب ملوك اليمن نقوداً تحمل أسماءهم وصورهم، وأسماء المدن التى ضُربت فيها، ويمتحف فينا بالنمسا مجموعة ثمينة من تلك النقود.

* * *

(ب) عرب الشمال (العدنانيون)

هم أولاد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، نشأوا بمكة، وانتشروا منها بعد كثرتهم « فى الحجاز وفى نجد وفى تهامة » وكان لمن بقى منهم بمكة إمارة عظيمة أرسى قواعدها قصى وهو الجد الخامس للنبى ﷺ بما أنشأه فيها من مناصب الشرف ومنها (دار الندوة، اللواء « وهو راية الحرب »، الحجابة، السقاية، الرفادة، السفارة)[1].

اشتغل المكّيُّون بالتجارة على نطاق واسع ونزلوا بالبلاد المجاورة وخالطوا سكانها مما كان له عظيم الأثر فى تحضرهم ورقيهم، وقد قال عنهم المؤرخ اليونانى (استرابون) (كل عربى سمسار أو تاجر، ومن لم يكن تاجراً بمكة لم يكن عندهم بشىء)[2].

وقد شاع بين المكيين بعض التعبيرات المالية، والتجارية الدقيقة، وجاء فى القرآن الكريم غير لفظة منها (الذرّة – القرض – الجزاء – الحساب – القسطاس – المثقال) بما يؤكد على عظيم تلك الحضارة التى قامت على دعائم ثابتة وقوية ترتكز على رواج التجارة المكية التى ألفت رحلتى الشتاء والصيف (اليمن ، الشام) ووصلوا بتجارتهم الحبشة، ومصر، والهند، واليمن وغزة، وقد ساهم موسم الحج إلى حد كبير فى رواج أسواقهم التجارية، وازدهرت مكة أيَّما ازدهار، وسَمت مكانتها فى أنحاء شبه الجزيرة العربية، وغدت وكأنها عاصمة الحجاز، وذلك يرجع إلى وجود بيت الله الحرام فى وسطها، وقد جعله الله مثابة للناس وأمنا فى وقت كان جفاف شبه الجزيرة العربية يهددهم بالفقر والجوع والتخلف.

---

(١) للإستزادة: انظر تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى ص ٢١ :٢٢

(٢) الأغانى ج١١ ص٦٧ .

ومن ثم ارتفعت مستوى المعيشة فى مكة، وظهر الترف، وتنوعت مطالب السكان حتى اشتروا القينات، ودرسوا الغناء، وتعلموا العزف على الأوتار الموسيقية، وما أظن ذلك كائنًا إلا فى أُمة استكملت حاجياتها الضرورية وتطلعت بعد إلى ذلك الكمال والترف.

وقد عَبَدَ العربُ الأوثان ، والأصنام التى يصنعها مثالوهم بأيديهم، وكانت أحب الأشياء وأطيبها على نفوسهم أن يسمروا حول الكعبة إلى جانب ثلاثمائة صنم أو تزيد هُم آلهة المكيين.

وقد عرف العرب النظام القبلى، وكانت القبيلة تعتبر نفسها وحدة مستقلّة وفى حالة حرب دائمة مع غيرها، لذلك صار الغزو عندهم أمرًا طبيعيًا، وأدّى إلى حال التوتر والقلاقل، وعدم الاستقرار فى شبه الجزيرة الذى لم ينعم بالخضوع لحكومة مركزية. بحيث بدا عرب الشمال فى هذه الخاصية متخلفين عن عرب الجنوب، ولم يعرفوا حقيقة الدولة إلا بعد فتح مكة سنة (ثمان من الهجرة) حيث بدأ عصرٌ جديد هو عصر الدولة الإسلامية، وحضارة جديدة هى الحضارة الإسلامية .

* * *

ثالثًا : الحضارة الفارسية

(وهى تسبق الميلاد كذلك، إلا أنها لا تصل إلى أقاصى ما بلغت الحضارة المصرية التى كان لها الفضل فى كتابة التاريخ وسبقته بآلاف السنين طعنا فى التاريخ، وقد كان لها فضل كبير على أهل اليمن والعراق) .

ومنذ ما قبل الميلاد وكان أمر الفرس موزعًا بين جماعة من الملوك عُرِفوا بملوك الطوائف حتى تمكن (أَرد شير بن بابك) فى ٢٢٦ م. من تأسيس دولة الأكاسرة التى جمعت أمر الفرس بيد ملك واحد، كان يقيم بالمدائن على شاطىء نهر دجلة جنوبى مدينة بغداد الحالية.

والفارسية كانت تدين بديانة المجوسية (عبادة النار : بالإتفاق)، وعلى الرغم من ذلك فقد نشأ إلى جانبها بدعة (المانويّة) التى قالت بالأصْلَيْن (النور والظلمة)، وأدخل عليها ما فى طريقة التثليث المعروفة فى المسيحية، والمعروفة سلفا عند المصريين بالمثلث الإلهى الأزلى فجعل (مانوى) الأصول ثلاثة (الماء، النور، الأرض) وقال إنها إختلطت فحدث عنها إلهان، إله الخير وهو الذى خلق النور وكل شىء مفيد، وإله الشر وهو الذى خلق الظلمة وكل شىء ضَار، وأن الصراع مستمر بين الإلهين حتى يُكتب الظفر لإله الخير، وعند ذلك تكون نهاية العالم.

اعتنق تلك البدعة من الفرس كثيرون على الرغم من عدم اتفاقها مع الدين الرسمي للفُرس مما جعل (هرمز الأول) يُلقى القبض على (مانوى) ثم قتله وعلق جثمانه على أحد أبواب مدينة (جنديسابور)، ولم يلبث أتباعه أن تفرقوا فى البلاد.

ثم ظهر بعد ذلك مارق آخر حاد المزاج (يدعى / مزدك) ، وأخذ يدعو من خلال مذهبه إلى إباحة الأموال والنساء، وجعل منهما شركة بين الناس مثل اشتراكهم فى الماء والهواء - وسارع إلى اعتناق هذا المذهب المتحرر الكثيرون من ذوي الشهوات الجامحة.

ولما اعتنق « كسرى قباذ » هذا المذهب وأصبح مزدكيا خالصا، وبات من أشد المدافعين عن استمراره ومن أوائل الداعين إلى انتشاره، طلب مزدك من كسرى أن يسمح له بتطبيق مذهبه على سيدة نساء الفُرس (زوجة كسرى) فأجابه إلى ذلك كسرى قباذ، وسمح له بمواقعتها لتحل عليها وعلى القصر البركات المزدكية.

عَزّ على وَلَدها (أنوشروان) ابن كسرى وولى عهده أن تصبح أمه فراشا لمزدك، ومازال يرجوه حتى عدل مزدك بعد أن انحنى « أنو شروان » على قدمه يقبلها[1].

ولما أُسند أمر الفرس إلى أنو شروان عُنى بالقضاء على مزدك وقتل أكثر من مائة (١٠٠) ألف من أتباعه، وأحدث ذلك فى بلاد الفرس هزّة اجتماعية ودينية، كان لها فى المجتمع الفارسى أبعد الآثار والإثارة.

وقد ظل أثر تلك النِّحلة الفاسدة كامنًا فى نفوس الفُرس الذين كانت المجوسية المذهب الرسمى لدولتهم.

وقد دخل الفرس فى حروب متصلة مع جيرانهم الرومان أثرت سلبًا إلى حد كبير في مستوى معيشة المواطنين، وفرض عليهم الأكاسرة الضرائب الباهظة والمتنوعة، الأمر الذى جعل الدولة الفارسية فى أواخر أيامها عرضة للقلاقل وعدم الاستقرار، وانغمس الملوك من آل ساسان فى الترف وحياة الفساد واستبدوا بالمحكومين، مما باعد بينهم وبين حكامهم، فتوالى خلع الملوك وقتلهم، واضطربت أمور الدولة.

وكان الأكاسرة ينظرون إلى غير المجوسيين من (**اليهود، والمسيحيين، والبوذيين والصابئة**) - نظرة ريبة وتوجس، فأنزلوا بهم من الاضطهاد ما قضى على وحدة الصف والهدف بين الحاكمين والمحكومين.

واستمر الحال كذلك بالدولة الفارسية - وخارت قواها ووهن اقتصادها وتَدَنَّى وتدهور مما مهد الطريق فيما بعد للفتح الإسلامى، ويَسَّرَ سُبل انتشاره.

* * *

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى ص١٣ .

رابعًا : الحضارة الرومانية

والمراد بها ههنا الحضارة القديمة الشرقية التى كانت تبسط سلطانها على بلاد البلقان، وآسيا الصغرى، والشام، ومصر، والشمال الإفريقى، وعاصمتها «القسطنطينية».

تعتبر الوثنية الديانة الرسمية لتلك الدولة حتى أخذت المسيحية تشق طريقها فيها، وأصبحت فيما بعد «الديانة الرسمية» لدولة الرومان.

واختلف المسيحيون فيما بينهم فى طبيعة المسيح عليه السلام، ووقع بأسهم فيما بينهم بسبب ذلك، وحاول الرومان إلزام مغايريهم فى عقيدتهم، بما يعتقدون فأصاب المسيحيين فى الشام ومصر شقاء بالغ من قسوة الرومان وشدتهم، وفر إلى جوف الصحراء كثيرون من (المصريين) الأقباط. على رأسهم البطريرك بنيامين. الذى قتل الرومان أخاه، وانعكس ذلك على الأحوال الاقتصادية والمعيشية على الأقباط[1]. فانهارت الزراعة، وارتفعت الأسعار بسبب هجرة الأيدي العاملة من بطش الرومان الذى ازداد نتيجة للتعصب الدينى الأعمى ضد المخالفين المسيحيين، ولم يلبث هذا التعصب أن تجاوز المسيحيين إلى اليهود فقاموا بثورة شديدة تمكنوا خلالها من قتل (أمير انطاكية) فقتل قيصر كثيرين من اليهود، ثم تآمر اليهود على قتل المسيحيين بمدينة «صور» وهاجموا الكنائس.

ويمكن القول بأن تلك الأحداث تعد بمثابة المسمار الأول فى نَعْش الإمبراطورية الرومانية، بالإضافة إلى عامل جوهرى آخر تمثل فى تواصل الحروب المتلاحقة مع الفرس التى تطلبت الأموال الطائلة، فعمد الأباطرة علي جمعها من الشعوب الخاضعة لسلطانهم ونفوذهم مستخدمين لذلك أقسى الأساليب وأشدها وحشية مما أدى إلى تذمر الشعوب وضيقها.

وكانت من النتائج الطبيعية لتلك الأحداث أن أصبح اليهود عونا للفتوحات الإسلامية، لأنهم نظروا إلى الفاتحين العرب كمنقذين ومُخلّصين مما كانوا يرزحون تحته من الإضطهاد القاسي، والطبقية البغيضة، وهو بحق ما يعلل الموقف السلبى الذى وقفه اليهود ومَسيحيو الشام ومصر أثناء الفتح الإسلامى العربى لبلادهم التى كانت وبحق جحيما رومانيًا لا يطاق.

* * *

(١) كلمة لاتينية الأصل مصدرها gypt أو cypt ومعناها مصر – وبذلك – الأقباط – المصريون.

خامسًا : الحضارة التونسية القديمة (القرطاجية)

كانت فى زمنها أكبر منافس لروما القديمة، ووقعت بين الدولتين حروب عدوانية مدمرة وطاحنة من أجل السيطرة على البحر المتوسط والعالم القديم بوجه عام.

وقد قامت قرطاجة فى ٨١٤ ق.م قرب مدينة تونس الحالية، وفى القرن الخامس ق.م أصبحت قرطاجة مملكة قوية ذات مراكز ومدن تجارية انتشرت على طول الساحل الإفريقى الشمالى كله فى سلسلة طويلة .

ولا تزال حتى الآن أنقاض المدن القرطاجية تُبهر الأنظار بروعتها وعظمتها.

وفى الفترة ذاتها خرجت إلي الوجود دولتان كبيرتان للبربر فى أفريقيا الشمالية هى (نوميديا) وتشمل الجزء الشرقى من (الجزائر الحالية)، وموريتانيا وتشمل الجزء الغربى من الجزائر وجزءاً من دولة المغرب الحالية وقد استطاع (ماسينيا) أن يدمج الدولتين فى دولة واحدة قوية عند أخريات القرن الثالث ق.م .

وعلى الرغم من مطامع قرطاجنة الأسبانية التى سببت الكثير من المشاكل للبربر فقد استطاعت الدولة البربرية أن تحافظ على سيادتها واستقلالها حتى حرب (جوجورتا) من ١١١ : ١٠٦ . ق.م حيث أنزلت الفيالق الرومانية سلسلة من الضربات الأليمة المؤثرة فى ممالك البربر، ثم عزلتها روما فيما بعد، ولم تلبث أن حولت ذلك الجزء من إفريقيا إلى إحدى ولاياتها[١].

* * *

سادسًا : الحضارة الفينيقية

قامت هذه الحضارة على الساحل الشمالى الغربى من بلاد الغساسنة (بلاد الشام) بإمتداد الساحل المتوسطى، واتخذت من (صُوُر) بالجنوب اللبنانى عاصمة لها.

---

(١) موجز تاريخ إفريقيا (ى سافلييف، ج سافلييف) ص١٢ .

يَتَزَامَنُ عمر الدولة الفينيقية مع قيام دولة (مملكة) اسرائيل الأولى منذ عام ١٠٠٤ ق.م : ٣٢٣ ق.م على يد نبى الله داود عليه السلام..

وقد عمل [آخاب] ابن عمرى – الملك الإسرائيلى – [٨٦٩ : ٨٥٠] ق.م على إقامة روابط وثيقة مع مدن الساحل الشمالى (الفينيقى). فتزوج من إيزبيل ابنة ملك صور التى تمكنت من إحلال الآلهة الفينيقية شيئًا فشيئًا محل عبادة الله فى إسرائيل. وقد أقام الفينيقيون مستعمرات لهم على ساحل إفريقيا فى العصور القديمة منها مستعمرة (أوتيكا) التى تأسست سنة ١١٠١ ق.م ، وقد قامت إلى جوارها حضارة قرطاجة ٨١٤ ق.م [١] .

* * *

(١) تاريخ الشرق الأدنى القديم، مصر وسوريا القديمة ص ٣٣٧ أحمد أمين سليم.